قصة قصيرة

عبدو

ناصر الرباط*

عندما كنتُ في التاسعة من عمري، فطن والداي إلى عزلتي وانطوائي. لاحظا أنّي أميل إلى اللعب وحدي ساعات طويلة، وأقرأ ساعات طويلة، مستلقيًا على ظهري في فترة القيلولة الحارة والمملّة، وأجلس ساكتًا على طاولة الطعام أمضغ لقماتي ببطء وانعدام شهية. انتابهما القلقُ عليّ؛ فأنا ابنهما الوحيد، لا أخ لي ولا أخت. وأمي وأبي كلاهما مثقف وعامل: هو موظّف كبير في وزارة الأشغال العامة، وهي أستاذة أدب إنجليزي في الجامعة، وكلاهما مشغول في النهار في العمل، وفي الليل مع الأصحاب في السهرات. ولأنّهما كانا والديْن عصريّيْن ومعنييْن بتربية ابنهما وتنشئته أفضلَ تنشئة، فقد اهتمّا بإيجاد حلّ لمشكلتي. فطالعا كلَّ الكتب التي وقعتْ تحت أيديهما عن نفسية الأطفال وتطوّر شخصياتهم، وسألا صديقًا لهما مختصًا بأمراض الأطفال النفسية عن أنجع وسيلة لعلاج الوحدة، فنصحهما بالطريقة التقليدية: «أنجبا له أخًا أو أختًا.» لكنّ والديّ العصريّيْن كانا منغمسين في عمليْهما ونشاطاتهما، ومعتاديْن حياتَهما كما استقرّت عليه، ولم يكن في تلك الحياة متّسع لطفل آخر. وبالإضافة إلى ذلك كانا قد تجاوزا الأربعين، وهذا ما جعل فكرةَ الإنجاب ـ خاصةً بالنسبة إلى أمي ـ فكرةً غير مستحبّة. فأعادا السؤال. وجاء جواب الصديق المختصّ: «إذن اجلبا له حيوانًا أليفًا يصادقه.» ولم تكن هذه بالفكرة المستحبة أيضًا، خاصةً أنّ أمي موسوسة جدًا وتخاف على مفروشاتها وكتبها وسجّادها القديم والجميل ولُعبَ البورسلين الدقيقة التي تحبّ جمعَها من كل بلد زارتْه في العالم. وتردّد والدي قليلاً. ولكنّهما عندما لم يوفّقا إلى بديل يحلّ لهما مشكلةَ وحدتي، وافقا على مضض. وابتدأ النقاش: أيُّ حيوان نجلب؟

كان بودّ أمي لو أنّ الصديق نَصَح بسمكة ذهبية أو سلحفاة. ولكنّه سرعان ما أكّد لهما انعدامَ الفائدة من حيوان لا يتحرّك ولا يتجاوب مع الطفل. واقترح عليهما كلبًا أو قطة. ولكنّ أمي، وأظنُّها كانت محقّة، عارضتْ فكرةَ إيواء كلب في الشقة التي كنّا نسكن فيها؛ فهي صغيرة ومزدحمة بأغراضها وأغراض أبي وكتبهما ولعبي، ولا يُمْكن كلبًا مهما كان صغيرًا أن يَقْنع بالبقاء فيها طوال النهار عندما نكون جميعًا في الخارج. فاستقرّ الحالُ على شراء قطة.

وهكذا ظهر عبدو في حياتي. جاءت به أمي في نهاية يوم خريفي ماطر بعد عودتها من الجامعة: قط صغير لا يتجاوز عمرُه أربعةَ أسابيع، أسودُ اللون، مرقّش بلطخات بيضاء كبيرة نسبيًا على ظهره ووركه الأيمن وفي أسفل بطنه وخلف أذنه اليسرى، وعيناه السوداوان اللامعتان تدوران في محجريْهما بقلق وخوف من المحيط الجديد الذي وَجَدَ نفسَه فيه وحيدًا بعد أن كان بصحبة إخوته الثلاثة وأمه حتى ظهيرة ذلك اليوم.

سألتني أمي: «ماذا سنسمّيه؟»

كانت أغنية «عبدو حابِبْ غندورة وغيرا ما بدّو» في قمة رواجها في تلك الأيام، فقلتُ مباشرةً: «عبدو!»

لم يعجبها الاسم؛ فهو بلدي وعادي ولا يليق بمحيطنا ولا بمستوانا الثقافي. وأمي إنسانة مثقفة ثقافة إنجليزية عالية، وأفضلُ اسم لقطّ بالنسبة إليها هو «موريس» أو «توبي.» ولكنّي أصررتُ على اختياري، فرضختْ بسرعة؛ فهي لم تجلب القط أصلاً إلاّ لتسليتي، ومن ثم كنتُ أنا ـ في رأيها ـ صاحبَ القرار في تسميته. وعلّلتْ ذلك بالقول: «سأدعك تختار الاسم، ولكنْ تذكّرْ أنّك أنت المسؤول عن القط (ولم تقل عبدو). أنتَ الذي ستطعمه وتحمّمه وتحرص على نظافته ونظافة ترابه وتغييره كلّما دعت الحاجة.» وافقتُ فورًا؛ فقد أحببتُ ذلك القط من أول نظرة، وأملِتُ أن أجد فيه أنيسًا ورفيقًا.

وبهذا حصل عبدو على بيت واسم وصاحب في آن واحد. ولم يبدُ عليه أنّه وعى التغيرَ الهائلَ الذي طرأ على حياته وهويّته. ولم تغادره رهبتُه من المحيط الجديد: فهو لم يتحرّك كثيرًا بعد أن وضعتْه أمي أرضًا لكي يقيس بنفسه أبعادَ بيته الجديد، كما قالت. ولم يمانعْ سلةَ القشّ المبطّنة بالمخملة الحمراء التي أرادتها له بيتًا موقّتًا. قبع عبدو مستسلمًا في سلّته، وقضى فيها ليلته الأولى عندنا من دون أن يجرؤ على الخروج منها ولو إلى تنكة التراب التي وضعتُها له في حمّام الضيوف وأريتُه إيّاها وجعلتُه يشمّها قبل أن أضعَ سلّتَه ـ وهو فيها ـ قرب سريري وأذهبَ للنوم بعد تأكّدي من أنّي تركتُ بابَ غرفتي مفتوحًا وبابَ الحمام مواربًا.

---

* ـ أستاذ الآغا خان للعمارة الإسلامية ـ كلية العمارة، معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا (M.I.T.).

عندما استيقظتُ في الصباح الباكر، وكان اليوم يوم أحدٍ ولا مدرسة عندي، كان أولَ ما فعلتُه أن قفزتُ من السرير وانحنيتُ فوق سلة عبدو الصغير، لتفاجئَ خياشيمي رائحةٌ قويةٌ ونفّاذة: عبدو شخّ في سلّته، على الرغم من أنّه ـ كما قالت أمي ـ مدرَّبٌ على الحمّام، وعلى الرغم من أنّ القطط ـ كما قالت أمي أيضًا ـ حيوانات نظيفة ولا تحبّ توسيخَ المكان الذي تقعد فيه. وعندما نظرتُ إلى عبدو مستهجنًا طالعتْني عينان صاحيتان وهلعتان وقرفانتان، فعذرتُه. وأخذتُه إلى الحمام ووضعتُه في تنكة التراب، وأخذتُ المخملة الحمراء ورميتُها في سلة الغسيل، وبدّلتُها بقطعة قماش صوفية صفراء؛ فالطقس كان قد ابتدأ يميل إلى البرودة، وظننتُ أنّ هذه الصوفة ستَدْفع عن عبدو بردَ الليل عندما ينام فيها. ذهبتُ إلى الحمّام، الذي كان حمّامي في الأيام العادية عندما لا يكون عندنا ضيوف، وغسلتُ وجهي وأسناني ومشّطتُ شعري وأنا أتطلّع من فوق المغسلة باتجاه التنكة، وعبدو فيها منهمكٌ بذرّ التراب على ما فعله. استعدتُ ثقتي بنظافته. ولما انتهى من عمله أجال البصرَ حوله ثم قفز بكلّ هدوء وثقة من فوق حرف التنكة ومضى خارجًا من الحمّام من دون أن ينتظرني أو يَنْظر مرةً باتجاهي. تمطّى على باب الحمّام ثم مشى في الدهليز ببطء عائدًا إلى غرفتي وإلى سلّته، التي دَخَلها من دون أن يعير التفاتًا إلى الصوفة الجديدة. جلس على مؤخّرته ورفع قائمته الخلفية إلى أذنه، وانهمك بلحس فروته وتنظيفها.

وهكذا ابتدأتْ حياةُ عبدو عندنا، أو ربما من وجهة نظره، حياتُنا معه في محيطه الجديد، الذي سرعان ما اعتاده، بل وكيّفه وفقًا لرغباته. فبعد ربع ساعة من اللحس والتنظيف رفع عبدو رأسه ونظر باتجاهي للمرة الأولى وماءَ.

طار قلبي الصغير لموائه لي: لقد تعرّفني وحاول التواصلَ معي!

نظرتُ إليه بدوري وقلت: «أهلاً عبدو، صباح الخير يا عبدو الغندور اللي حابِبْ غندورة.» ولكنّه داوم النظر إليّ وماءَ ثانيةً، بيْد أنّ مواءه هذه المرة كان ممطوطًا ولحوحًا كما بدا لي، فأجبتُه مواءً بمواء. قفز من سلّته وجاء إليّ وأنا جالس على كرسيّ مكتبي الخشبي في پيجامتي، وابتدأ بالتمسح بطرف ساقي وهو يموء مواءً متقطّعًا يرسله ضعيفًا وعلى دفعات، وأنا مأخوذ تمامًا بهذه العاطفة المفاجئة الجديدة وأبادله التناغمَ من دون أن أتحرّك أو أن أحاولَ حملَه أو الطبطبةَ على ظهره على الرغم من أنّي كنتُ أتحرّق إلى ذلك.

في هذه اللحظة دخلتْ أمي الغرفةَ تَسْبقها الـ «غُودْ مورننغ» المعتادة في الصباح. أسرعتْ نحو الستارة ترفعها لكي تَسْمح لشمس الخريف الوجلة بالدخول. فاجأ ضوءُ الشمس عبدو فتركني وعاد إلى سلّته، وطفق يتفحّصها ـ وصوفتُه الجديدة بداخلها ـ باهتمامٍ وتمعُّن. قلتُ لأمي: «أسكتتْه الشمس؛ فهو كان يلاغيني منذ الصباح.» فأجابت: «وهل تظنّ أنّه كان يلاغيك لسواد عينيْك؟ إنّه جائع ويطالبك ببعض الفطور.» عندها انتبهتُ إلى أنّ عبدو المسكين لم يأكل شيئًا منذ مجيئه البارحة. قفزتُ إلى المطبخ وهو يركض خلفي ويهرّ. فتحتُ الثلاّجة وأخرجتُ منها زجاجة الحليب، وصببتُ له بعضَه في صحن صغير ووضعتُه له قرب المجلى، فانحنى عليه وراح يلعقه بلذة ونهم واضحيْن، وهو يُصْدر أصواتًا شبيهةً بتلك التي تَجْزرني أمي كلّما صَدَرَتْ عنّي مثيلاتُها على مائة الطعام.

❖ ❖ ❖

لم يَطُل الوقت قبل أن يصبح عبدو الأميرَ الصغيرَ في شقتنا وفي حياتنا. وصارت له في كلّ غرفة زاويةٌ خاصة: في غرفتي احتلّت سلّتُه الجديدة ـ المفروشةُ بالمخدّات الصغيرة الملوّنة وبعض اللعب المحشوّة ـ الركنَ المقابلَ لسريري عند طرف النافذة. وفي المطبخ صار له خلف الثلاّجة ركنُه المجهَّزُ بعلبة بلاستيكية فيها فراغاتٌ مقولبةٌ على أشكال سمكة وورك دجاجة ودائرة ومربّع لوضع الطعام والحليب والماء فيها، وكُلِّفتُ بالتأكُّد من نظافة العلبة وامتلائها بالماء والطعام دائمًا. وفي حمّام الضيوف صار له صندوقٌ بلاستيكي مجهّزٌ بغطاء، وله علبة مملوءة بتراب أحمر ناعم يُفترض أن يمتصّ الرائحة، وكنتُ أنا أيضًا المسؤولَ عن المحافظة على نظافة الصندوق والمكان حوله. أما غرفة الجلوس فقد أصبحتْ غرفتَه المفضّلة، وصار يعتبر كلّ أرائكها ملْكَه الشخصيّ الذي يَسْمح لنا بالجلوس عليها موقّتًا من دون أن يتنازل أبدًا عن حقّه في إزاحة أيٍّ منّا لو عَنّ له التمدُّدُ مكانَه، خاصةً إذا كان يريد التفرّج على التلفزيون الذي كان قد دَخَلَ حياتنا

مؤخّرًا. وبقيتْ غرفةُ الضيوف الغرفةَ الوحيدةَ المغلقة في وجهه؛ فقد أقفلتْ أمي بابَها لكي لا يدخل عبدو إليها ويَكْسر التحفَ المصمودةَ فيها.

واحتلّ عبدو حيزًا كبيرًا من حياتي ومن نشاطي. فقد كنتُ أصرفُ ساعتين على الأقل يوميًا للاعتناء بأكله ونومه وشخاخه ولعبه ونظافته، وللتأكّد من أنّه لا يمزّن مخالبَه على سجّاد أمي أو مفروشاتها أو ينطّ على رفوف كتبها وكتب أبي. ولكنّ كلّ هذا الاهتمام لم يؤدِّ إلى كسر طوق الوحشة الذي أحسستُ به منذ البداية بيني وبينه. كان اللعين لا يَسْمح لي بحمله وبمداعبته إلاّ عندما كان ينتظر منّي أن أطعمه أو أسقيه، وكان يأتي للتمسح بي إذا نسيتُ إطعامَه أو تغييرَ تراب تنكته. أما ما عدا ذلك فقد حافظ على نفوره وتفرُّده، ولم يرضَ أبدًا مشاركتي سريري أو الجلوسَ على حضني في غرفة الجلوس عندما كنتُ أدير جهاز التلفزيون. وكان ينقلب عدوانيًا تمامًا يومَ الحمّام، ويهرب منّي في كل أرجاء الشقة ويختبئ في أعتم الزوايا تحت أثقل قطع المفروشات كي لا أصل إليه. وكنتُ مضطرًا إلى لبس قفازات الجلي المطّاطية لوقاية يديّ من خمشات مخالبه الحادة التي كان يُشرعها ضدّي حتى وهو غاطس إلى أنفه في ماء الحمّام، وأنا أفرك فروته الرائعة بذلك الشامپو المعطّر الذي جلبْته أمي لحمايته وحمايتنا من القمل وأمثاله. وكان يحافظ على حرده ونفوره منّي لفترة طويلة بعد الحمّام، ويجلس وحيدًا لينشّف نفسَه على حافة النافذة في الشمس أو قرب المدفأة إذا كان الطقس باردًا. وعندما يَنْشف وبرُه تمامًا وينتفش ويَلْمع تلك اللمعةَ الفتّانة، يدير ظهرَه لي ويَرْفع ذيلَه الأسود والأبيض المنفوش ويخرج من غرفتي مختالاً بجماله، من غير أن يَسْمح لي بتمسيد وبره وإغراق يديّ في نعومته أو شمّه وتقبيله، ربما لعقابي على كوني المتسبِّبَ بهذه النعومة وهذه النظافة.

❖ ❖ ❖

بيْد أنّ وحشة عبدو ربما كانت لسبب آخر. فالحقّ أنّه كان قطًا لعوبًا وكثيرَ النشاط، ولعلّه لم يُعْجَبْ بنمط حياتي الهادئ. فهو كان يقضي جلّ وقته يطارد حشرات حقيقيةً أو وهميةً في كل أرجاء الشقة، ويحلو له أن ينهي برنامجَ مطاردته بصراع متوتّر مع لعبة الفرو المحشوّة، خاصةً مع الدبّ البني الصغير والفأر الرمادي اللذيْن سرعان ما فقدا أطرافَهما التي نتشها عبدو في حلقات لعبه العنيف.

ومرت الأيام، فكبر عبدو وترعرع. صار قطًا يافعًا كبيرَ الحجم ورائعَ الوبر. لم يَفْترْ نشاطُه، وازدادت شهيّتُه. ولم تعد تكفيه غرفُ الشقة على تنوُّعها وامتلائها بالزوايا الملائمة للعب. ولم يعد يهتمّ بلعبه المحشّوة، حتى بعد أن خاطت أمي أطرافَها المنتوشة، بل صار ينظر إليها بازدراء بعد أن تبيَّن له أنّها لعب جامدة لا تملك من أمرها شيئًا. وعلى الرغم من تغيّر كل شيء فيه فإنّه لم يغيّر من برودة عواطفه تجاهي، مع أنّي كنتُ أحاول باستمرار أن أخلق له ألعابًا جديدةً لأسليه ولكي ألعب معه في الوقت نفسه. في هذه الفترة أحسّ عبدو أنّ وراء باب الشقة عالمًا ثانيًا غامضًا ومليئًا بالمغامرات، وأنّ ما عليه سوى أن يخطو خطوةً واحدة فوق العتبة لكي يَلِجَه. فصار يقف كلّ يوم خلف الباب طويلاً ويموء ذلك المواءَ الطويلَ واللجوج الذي يستعمله عندما يريد أن ينبّهنا إلى أنّه يريد شيئًا ما. ولكنّ أمي كانت له بالمرصاد، ولم تَسْمح له بالخروج. فعبدو، كما أكّدتْ لها السيدةُ التي باعتْها إياه، قطٌّ بيتيٌّ، كما كانت أمُّه وأمُّ أمّه من قبله، ويُفترض من ثم ألاّ يخطو خارج المنزل إطلاقًا. وهو على كل الأحوال لا يمكنه الحياة وحده في الخارج يقتات من فضلات المدينة ويصارع القطط الضالة المتشرّدة على قطعة عظم أو فضلة لحم، بل ربما دهستْه سيارةٌ طائشة أو أصيب بمرض مميت. وهو كذلك غير معتاد وساخةَ الشوارع، ويمكن أن يسبِّب لنا أمراضًا وقذارةً في الشقة لو سمحنا له بالخروج إلى الشارع والعودة على هواه إلى المنزل. واقتنعتُ أنا برأي أمي، ولكنْ لا أمي ولا أنا كنّا نَعْرف كيف نُقْنع عبدو ذاته.

ومع إصرار عبدو على الخروج وموائه خلف الباب مهما كان العقاب، ابتدأ حزمي يلين. وسرعان ما وجدتُ نفسي أنحاز إليه ضدّ رأي أمي؛ فأنا كنتُ أتحرّق إلى عقد صلة حميمة مع ذلك المخلوق الوبري والبكّاء الذي كنتُ أحبّه بشدّة. وصرتُ أتحيّن الفرصَ لأناقش أمي

بصحة رأيها، ووعدتُها بأن لا نَسْمح له بالخروج أكثر من مرة واحدة في الأسبوع، وبأنّي سأحمِّمه حمّامًا كاملاً مباشرةً بعد عودته من كل خروج. حاولتْ أمي الممانعة، وأعادت على مسمعي لائحةَ الأخطار التي ستترتّب علينا من جرّاء السماح لعبدو بالخروج، وأضافت إليها سببًا جديدًا لم أفهمه تمامًا: فعبدو، كما قالت، يتحرّق شوقًا إلى الخروج لكي يلتقي بإناث القطط. بدا لي ذلك أمرًا شديد الغرابة لأنّ الأولاد في ذلك العمر يتحاشوْن صحبةَ البنات! وأضافت أنّ لقاء عبدو بإناث القطط سيؤدّي إلى صراعه مع غيره من الذكور، وربما إلى جرحه أو تشويهه. استغربتُ جدًا من هذا الاحتمال، إذ لم أستطع أن أستوعب أنّ الذكور قد يتقاتلون بسبب الإناث. وعبدو، في نهاية الأمر، كما قالت أمي، قارَبَ «سنّ البلوغ» وهو غير «معقَّم.» ولمّا سألتُ أمي: «ما معنى سنّ البلوغ؟» قالت: «هو ما يعادل تحوُّلَ الولد إلى رجل.» فتخيّلتُ عبدو بشوارب أكثف من الشوارب البيضاء الطويلة والمرهفة التي نبتتْ على طرفيْ فمه. وحين سألتُها: «ما معنى غير معقّم؟» أجابت: «غير مطهَّر.» فتخيّلتُ منظر ابن النجّار في حارتنا عندما طهّره أبوه التركمانيُّ الأصل في السادسة من عمره، وكيف كان يمشي بصعوبة أسبوعًا كاملاً بعد طهوره، وكيف وصف لي الآلام الشديدة التي سبّبها ذلك. فاقشعرّ بدني وخِفْتُ لأجل عبدو، وقلت لأمي إنّ عبدو مازال صغيرًا على «البلوغ» و«التعقيم،» فهزّت برأسها ولم تجب. المهمّ أنّها لانت آخرَ الأمر وسمحتْ بخروج عبدو مرةً في الأسبوع، ولو أنّها كررتْ ثانيةً أنّها ستسأل في وحدة الطب البيطري في الجامعة عن ضرورة «تعقيمه.» ولم أتمالك نفسي من الالتفات إلى عبدو والتصريح بأنّ المنع من خروجه قد سقط. لم يبدُ عليه أنّه فهم ما قلتُه، حتى بعد أن فتحتُ له البابَ وانحنيتُ جانبًا فاسحًا له سبيلَ الخروج.

بعد تردُّد بسيط، خرج عبدو وأنا أرقبه وأمي من خلفي. خطا في البدء خطواتٍ هيّابةً وجلةً على الفسحة أمام الشقة، والتفت إلينا كأنّه يتأكّد من أنّنا لا نتبعه. ثم انطلق يعدو نازلاً الدرجَ إلى الشارع. ركضتُ إلى النافذة لكي أراقبه، ولكنّي لم ألحقْ به. وبعد حوالى الساعتين سمعنا مواءه خلف الباب، فأسرعتُ أفتحُ له. دخل مغبرًا وسخًا، ولكنْ بادي السرور. أخذتُه إلى الحمّام قبل أن تأتي أمي وتشاهدَ الحالة المزرية التي كان عليها فتغيِّر رأيَها بالسماح له بالخروج ثانيةً. وصارت تلك عادتنا: كلّ خميس بعد الظهر ـ حين لا تكون مدرسة ـ يخرج عبدو وحده، لكي يعود قبل غروب الشمس متوسِّخًا وسعيدًا، فأحمِّمه، وأضع له كمية مضاعفة من الطعام لتعويض الجهد الذي بذله في لعبه مع قطط الشارع (الذكور قطعًا برأيي، فاللعب مع الإناث مملّ وغير مسلٍّ!).

لكنّ عبدو لم يقدِّر جهودي ويصبحْ صديقي. صحيح أنّ وقوفه خلف الباب والمواء قد خفّا، وأنّه صار يقضي وقتًا أطول معي في غرفتي، ولكنّه حافظ على المسافة بيننا وأصرّ على الامتناع عن مشاركتي أريكتي أمام التلفزيون أو سريري في الليل. وعجزتُ عن التفكير في وسائل أخرى تحبِّبني إليه، إلى أن جاء اليوم الذي عاد فيه من مشواره الأسبوعي ورقْبتُه تنزف. ارتبكتُ، ولم أعرف ما يتعيّن عليّ فعلُه: إذا حممتُه فقد يلتهب جرحُه، وإذا أخبرتُ أمي لكي تطهّر جرحه فقد تغضب وتمنعه من الخروج. تغلّب عليّ خوفي من المضاعفات وندهتُ لأمي التي جاءت مسرعة كأنّها كانت تنتظر هذا الحادث. عَقّمت الجرحَ الذي ظهر أنّه سطحيّ، ولكنّها قررتْ حرمانَ عبدو من الخروج في الأسبوع التالي. وما إنْ حلّ الخميس القادم حتى وجدتُ عبدو واقفًا خلف الباب يُعْول بأعلى صوته؛ فهو طبعًا لم يفهم سبب المنع، وأمي قررتْ ألاّ تلين. ولكنّها عادت وسمحتْ له بالخروج في الأسبوع الذي تلاه لكي تتخلّص من إلحاحي ومن موائه.

عدنا إلى سيرتنا المعتادة: خروجٌ فحمّامٌ فانتظارٌ، إلى أن يحلّ الأسبوع القادم. وبقيتْ علاقتي بعبدو بائسةً، وعلاقتُه بي منفعيةً. ولم ألاحظ في البدء أنّ مشاويره قد ابتدأتْ تطول أكثر من الساعتين المعتادتين، حتى انتبهتْ أمي في أحد الأيام إلى أنّ الظلام قد حلّ وعبدو لم يعدْ بعد. ولما جاء كان مغبرًا أكثر من العادة، وآثارُ العراك بادية على وجهه وعلى جسده على شكل خدوش وبقعٍ ووبرٍ منتوف. لم يعجب الأمر أمي ولكنّها لم تتّخذ أيَّ إجراء جديد، ربما لأنّها بدأتْ فعلاً تفكّر في إجراءٍ جذريّ.

❖ ❖ ❖

لما جاء الأسبوع القادم تأخّر عبدو أكثرَ من العادة، ولم يعد إلاّ بعد أن ذهبتُ إلى السرير، فاضطرّت أمي إلى تحميمه وإطعامه. وفي الأسبوع التالي لم يعد عبدو إلاّ في صباح الجمعة. وكذلك الأمر في الأسبوع الذي تلاه، ولكنّه هذه المرة عاد عودةً مزريةً حقًا: خدوش في كلّ أنحاء جسده، بعضُها عميق وينزف، وجرحٌ غائرٌ عبر عينه اليسرى، قَطَعَ الجفنَ وبؤبؤَ العين نفسها وغطّاها بالدم الذي تجمّد على سطحها، فاستحال علينا تقديرُ عمق الجرح. هرعنا إلى السيارة، أمي وأبي وأنا، وأخذناه إلى وحدة الطب البيطري في الجامعة. ولما وصلنا لم تسمحْ أمي لي بالدخول لعلمها برقّة نفسي وبخوفي من مرأى الدماء والأدوات الطبية. فجلستُ قلقًا أنتظر في السيارة، وعاد والداي بعد ساعة وحيديْن من غير عبدو.

بادرتني أمي حالَ دخولها السيارةَ قبل أن أفتح فمي: «لا تخشَ شيئًا. القط بخير، ولكنّه بحاجة إلى عملية، ولن يعود إلى البيت إلاّ بعد ثلاثة أيام.»

«ثلاثة أيام!» انتفضتُ قائلاً، «ولماذا يحتاج جرحٌ في العين إلى ثلاثة أيام في المستشفى؟»

فأجابتني أمي: «الجرح غائر، وعبدو بحاجة إلى عملية دقيقة ومراقبةٍ بعدها.»

مرت الأيام الثلاثة وأنا على أحرّ من الجمر. وحين حلّ اليومُ الموعود عادت أمي بعد الظهر ومعها سلةٌ وضعتْها أرضًا وأزاحت الغطاء، فظهر تحته عبدو، وعينُه اليسرى مغطّاةٌ بضماد أبيض. بدا عليه الإرهاق واليأس (لا أعلم تمامًا كيف أصف اليأسَ على وجه قط ولكنّي فعلاً أحسستُ به). وحين تحرّك أخيرًا فوجئتُ برؤية ضمادة أخرى، أكبر من الأولى، تغطّي طرفَ مؤخّرته وأسفلَ بطنه. التفتُّ إلى أمي وعلى وجهي علامةُ استفهام مستنكرة. قالت لي: «كان لا بدّ من تطعيم القط لو أردتَ الاحتفاظ به، وإلاّ فإنّ مشاويره المتطاولة كانت ستؤدّي إلى اختفائه أو إلى موته.»

لم أقتنع، ولكنّي أيضًا لم أحتجّ. ففي تلك اللحظة طغى عليّ شعورٌ بالحب العامّ والعطف تجاه عبدو. قمتُ إليه أحتضنه، والدموعُ تذرف من عينيّ. لم يمانع عبدو في احتضاني إيّاه، بل بدا عليه السرور والارتخاء في يدي. ساورني العجبُ، ولكنّ الفرحة التي صعدتْ من داخلي بسبب تلك الألفة التي أبداها تجاهي حَجَبتْ تساؤلي غير المعلن. قامت أمي إلى غرفتها لتغيِّر ثيابها، وتركتنا وحدنا عبدو وأنا. قمت إلى سريري واستلقيتُ عليه وهو على صدري، ولأول مرة لم يمانع. هدهدتُه على صدري وأنا أناغيه كالطفل الضالّ الذي عاد أخيرًا إلى منزله. ثم أخذني الإرهاق ونمت. ولما انتبهتُ بعد قليل من غفوتي وجدتُ عبدو على حافة النافذة، وبدا لي منظره غريبًا بضمادتيْه، خاصةً وأنّه بدا وكأنّه يَنْظر إلى الشارع عبر الضمادة التي تغطّي عينَه اليسرى.

ناديتُه بصوت متهدِّج: «عبدو.»

التفت إليّ مجيبًا بعينه السليمة، وأُقسم أنّي لأوّل مرة منذ جاءنا عبدو سمعتُ صوتَ هَرِيرِ رضاه من تلك المسافة.

ومنذ ذلك اليوم أصبحنا صديقين.

كامبردج، ماساتشوستس